المؤتمر الدولي عن الرحمة في الإسلام
The International Conference on Mercy in Islam
قسم الدراسات الإسلامية - كلية التربية

المنهج النبوي في تعزيز قيمة الرحمة لدى الصحابة رضي الله عنهم

إعداد:
د. أنس سليمان المصري
محاضر غير متفرغ – الجامعة الأردنية

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، غافر الذنب وقابل التوب، الرؤوف الحليم، والصلاة والسلام على الرحمة المهداة، والرأفة المعطاة، الصادق البر الأمين، وعلى صحابته الغر الميامين، الهداة المهديين، ومن تبع سمتهم من أصحاب الخلق الربانيين، ونشر دعوتهم رحمة للعالمين، وبعد:

فإن الله ﷻ بدأ كتابه العظيم بعنوان رسالته، وحكمة دينه؛ فشرع باسمه الرحمن الرحيم؛ لتشمل رحمته ﷻ المثلى للعالمين في الدنيا والآخرة، ثم جعلها مفتاح كل سورة في القرآن الكريم؛ بل كانت مفتاحًا لكل عمل يشرع به المسلم؛ وقد اتخذها النبي ﷺ فاتحة لرسائل دعوته للملوك والأمراء[1]؛ كما اتخذها سيدنا سليمان عليه السلام في رسالته إلى ملكة سبأ كما في قوله ﷻ: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾﴾ [النمل:٢٩-٣٠].

ثم كرّر الله ﷻ هذه الصفة مرة أخرى في فاتحة الكتاب؛ ليكون منهج الرحمة أساسًا لكل دعوة للإسلام، وكل تعامل أو عمل يقوم به المسلم في

(١) متفق عليه. رواه البخاري، صحيح البخاري، ح(٤١٨٨)، ومسلم، صحيح مسلم، ح(٣٣٢٢)، في رسالته إلى هرقل.

هذه الدنيا، ليس هذا فحسب، بل جاءت في فواتح السور بالبسملات التي اختصها الله ﷻ بالرحمة، وكما جاء كثير من خواتيم الآيات ومضامينها بمفهوم الرحمة الإلهية، وجاءت أوامره ﷻ باتخاذها منهجًا للدعوة، وشعارًا للإيمان، إضافة إلى ما جاء في الأحاديث القدسية والنبوية على ترسيخ هذا المفهوم، وغرسه وتعزيزه في خلق المؤمن ليكون طبعًا نفسيًا ثابتًا لا يتغير، الأمر الذي جعل هذه الدعوة أكثر الديانات انتشارًا وأسرعها إقناعًا لعقول البشر وقلوبهم.

ولذلك جاء الأمر الإلهي لاستخلاف الناس وعمارة الأرض، وبناء النفس البشرية، واستغلالها لنشر الدين، من خلال تلك القيم الإسلامية العظيمة المشروعة في الكتاب والسنة، والتي بدورها تضبط سلوك المسلم، وتبني صورته المظهرية والمخبرية.

من هنا جاء دور المنهج النبوي، والشريعة الإسلامية التي قامت على مكارم الأخلاق، وفضائل الأعمال والأذواق؛ لتغرس في النفوس خُلُق الرأفة والرحمة، وتؤطره بالمنهج الرباني بعيدًا على الإفراط أو التفريط، واستغلال تلك القيمة الخلقية الراقية للرقي في تعامل المسلمين فيما بينهم، ومن ثم نشر الدعوة الإسلامية إلى الناس كافة مصداقًا لقول الله ﷻ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء]؛ لتتجاوز رحمته ﷺ المسلمين إلى غير المسلمين بل إلى عوالم الحيوان والنبات وعوالم أخرى لم ندركها بعد.

ويرتبط خلق الرحمة في النفس البشرية مع غيره من الأخلاق والقيم؛ بحيث يؤثر كل منها على الآخر لتشكّل في مجملها نوع الشخصية التي تحمل تلك الأخلاط من الأخلاق؛ في حين يمكن تعزيز تلك الأخلاق الكريمة كلٍّ منها على حدة؛ إذ إنها على الرغم من تأثيرها النسبي على بعضها البعض؛ إلا أنه يمكن تمييزها، وفرزها، وتعزيز كل منها بشكل منفصل.

وعلى الرغم من حداثة ذلك المفهوم لدى مختصي علوم التربية والتنمية البشرية إلا أننا نجد أن هذا أسلوبًا متبعًا في المنهج النبوي، إضافة إلى أساليب أخرى تساعد على بناء الشخصية الأخلاقية لدى الصحابة ﷺ بأنواعها المختلفة، وبشكل واضح وفعّال، ولا نكون مغامرين -بعد التعمق في دراسة المنهج النبوي- إن قلنا: إن السنة قد سبقت في معرفة تلك القيم الروحية والخلقية المكوّنة للشخصية، وتوظيفها، والعمل على توجيهها لبناء المجتمع، واستغلالها بمقدار قوة امتلاكها عند الصحابة ﷺ، وبحسب قدراتهم المختلفة، مما جعلها سلاحًا لخدمة الدعوة الإسلامية، ونشر دين الله ﷻ وعمارة الأرض، فضلًا عما كان يمتلكه صاحب المنهج ﷺ من درجات مرتفعة بشكل ملحوظ للقيم المختلفة، مصداقًا لقوله ﷻ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب:٢١].

وتختلف الشخصيات الإنسانية في درجات امتلاكها لخلق الرحمة؛ إذ يمكن أن تتجلى في شخصيات معينة في حين تحتاج شخصيات أخرى إلى تعزيز أو تطوير ذلك الخلق الرفيع، وذلك إما بسبب البيئة المحيطة كالبادية؛ كما قال ﷺ: «إن القسوة وغلظ القلوب في الفدادين عند أصول أذناب الإبل...»[(١)]، أو الظروف المساعدة على إضعافها كالقتال والجندية، مع الأخذ بعين الاعتبار تميزهم بأخلاق أخرى كالصدق والكرم والشجاعة، من هنا جاء المنهج النبوي ليتمم مكارم الأخلاق[(٢)].

ولهذا نجد المصطفى ﷺ عمل على غرس وتعزيز الرحمة في قلوب أصحابه بعدة طرق مختلفة، وعالج تلك الشخصيات المفتقرة إليها بإزالة أسباب ضعفها، بل تجاوز الأمر إلى أنه كان يعلم الصحابة ﷺ آليات ذلك كله.

(١) متفق عليه. رواه البخاري، صحيح البخاري، ح(٣٠٥٧)، ومسلم، صحيح مسلم، ح(٧٢).
(٢) حسن. رواه أحمد، المسند، ٢/ ٣١٨، وحسّنه الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة ١/ ١١٢، وقال الحاكم: «صحيح على شرط مسلم». انظر: المستدرك، ٢/ ٦١٣.

وقد كان النبي ﷺ القدوة في الرحمة جمعاء، ولا ينافي ذلك نبوته ﷺ، وليس فتحًا لباب المستشرقين ممن زعموا أن محمدًا ﷺ إنما قاد الناس بشخصيته المتميزة وخلقه الكريم لا نبوته، وأن هذا خارج عن الشريعة والوحي الحكيمين، لكنه ﷺ -بلا شك- مع نبوته وتلقيه لوحي السماء كان متصفًا -فطرة- بالرحمة العظيمة فضلًا عن الخلق الرفيع، والحكمة والهدى، إضافة إلى ما حباه الله ﷻ إياه من النبوة، بل إن كثيرًا من مواقفه الحكيمة كان مردها الوحي، فاصطفاه الله ﷻ على الناس في كلا الأمرين؛ نبوته وحسن شمائله.

ولهذا أشار القاضي عياض حيث قال: "وأما وفور عقله، وذكائه، وقوة حواسه، وفصاحة لسانه، واعتدال حركاته، وحسن شمائله، فلا مرية أنه كان أعقل الناس وأذكاهم، ومن تأمل تدبيره أمر بواطن الخلق وظاهرهم، وسياسة العامة والخاصة، مع عُجب شمائله وبديع سيره، فضلًا عما أفاضه من العلم، وقرره من الشرع، دون تعلم سَبَق، ولا ممارسة تقدمت، ولا مطالعة للكتب منه؛ لم يمترِ في رجحان عقله، وثقوب فهمه لأول بديهة، وهذا مما لا يحتاج إلى تقريره لتحققه"[1].

إن ما تنادي به النظريات التربوية المعاصرة من التخلّق بالرحمة والمساواة وحقوق الإنسان والعدالة الاجتماعية، والبعد عن العنف والعصبية والغلو والتطرف ما هي إلا مصطلحات أخرى تحاكي الجوانب البشرية، إلا أنها -في حقيقة الأمر- لم تضف إلى المنهج النبوي في بناء القيم الخلقية والإنسانية لدى الصحابة ﷺ إلا تسميات جديدة، توصّل واضعوها إلى جزء من منظومة هذا المنهج الرباني في تربية الصحابة ﷺ، إضافة إلى ما عمل به الصحابة ﷺ من الاقتداء بالمنهج النبوي في تربية أبنائهم على القيم الإسلامية؛ لتتسع الدائرة وتستمر جيلًا بعد جيل، على الرغم من بساطة

(١) عياض، القاضي عياض بن موسى اليحصبي، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ١/ ٩٣.

الوسائل المستخدمة في الكشف عن تلك القيم آنذاك، وعدم امتلاك الأدوات الحديثة لتطويرها، أو الدراسات الإحصائية لجمع عناصرها الأساسية.

وفي هذا البحث سنستعرض آليات الكشف عن خلق الرحمة في الشخصية الإنسانية، ومدى براعة المنهج النبوي في ذلك، وما امتلكه الصحابة ﷺ من الفروق الفردية فيه، وطرق تنمية هذا الخلق وصقله ورفع سويته عند الصحابة ﷺ، ومعالجة النقص الموجود عند بعضهم، من خلال مواقفه المختلفة، فضلًا عن اتصافه ﷺ بتلك القيمة الروحية بشكل واضح، ومدى حكمته ﷺ في توظيفها في شتى نواحي حياته الدعوية، مما جعله ﷺ أكمل الناس أوصافًا، وأكثرهم تأثيرًا في الآخرين.

مشكلة الدراسة وأهدافها:

تتراوح الدراسات السابقة للبحث بين مراجع قديمة أصيلة تتمحور حول عموم الهدي النبوي في أخلاقه وسننه، أو كتب معاصرة تفصّل أشكال ونماذج رحمته ﷺ في التعامل مع الغير من إنسان أو حيوان أو غير ذلك دون تحليل أو تصنيف أو تقعيد، وبين مراجع حديثة تعرض خلق الرحمة باعتباره قيمة إنسانية حسب المناهج التربوية المعاصرة بعيدًا عن اتخاذ المرجعية النبوية أساسًا لدراساتها؛ باعتبار أن تلك النظريات المعاصرة مصدرها غير إسلامي، ولا تتخذ من الشريعة مرجعًا؛ مما يعوز إلى دراسة معاصرة تربط بين المنهج النبوي باعتباره المرجع الأول والأكمل في الدعوة إلى خلق الرحمة والعمل به، وبين أحدث ما توصلت إليه المعرفة البشرية في تعميق ذلك الخلق أو تعزيزه، والإضافة على تلك المناهج.

الدراسات السابقة:

١. السرجاني، راغب، الرحمة في حياة الرسول ﷺ، ط١، رابطة العالم الإسلامي، ١٤٣٠هـ.

عرضت الدراسة أوضاع العالم زمن النبي ﷺ، وحاجته إلى الرحمة، مع نماذج من رحمة الرسول ﷺ مع المسلمين وغير المسلمين، إضافة إلى دحض العديد من الشبهات المثارة عن الرسول ﷺ، وكان منهجها سرديًا تصنيفيًا تحليليًا؛ إلا أنها -لطبيعة الدراسة- لم تعرض إلى وسائل الكشف والتعزيز والمعالجة للثغرات وآليات تفعيلها المعاصر.

٢. ياقوت، محمد مسعد، نبي الرحمة، ١م، ط١، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ٢٠٠٧م.

عرضت الدراسة إلى مظاهر رحمته ﷺ، وشهادات بعض المستشرقين على عظم أخلاقه ﷺ، وساقت عدة مواقف نبوية متبعة المنهج السردي دون التأطير والتحليل والتقعيد، كما إنها لم تعرض إلى آليات تعزيز هذا الخلق عند الصحابة وغرسه وتربيتهم عليه الأمر الذي يحتاجه التربويون أو الدارسون المعاصرون لصياغة المناهج التربوية المعاصرة.

٣. الصمدي، خالد، القيم الإسلامية في المنظومة التربوية، ١م، المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، الرباط، ٢٠٠٨م.

عنيت الدراسة بتوضيح عدد من القيم وآليات اكتشاف مؤشراتها، وسبل تعزيزها، والوسائل المستخدمة لذلك، إلا أنها لم تشمل جميع الجوانب والآليات والوسائل، كما أنها لم تتطرق لخلق الرحمة وما يختص به.

٤. جابر، جابر عبدالحميد، الذكاءات المتعددة والفهم تنمية وتعميق، ط١، دار الفكر العربي، القاهرة، ٢٠٠٣م.

٥. غاردنر، هاورد، أطر العقل نظرية الذكاءات المتعددة، مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض، ٢٠٠٤هـ، ترجمة محمد بلال الجيوسي.

تناولت الدراستان بعض القيم الروحية وتوصيفها، والتعريف بها، إضافة إلى بعض الصفات الشخصية الأخرى، إلا أنهما -بحسب طبيعة البحث- لم تتعرضا لأية خلفيات شرعية أو نبوية؛ كما إنهما عالجتا القيم من منطلق مادي، ومصلحي بعيدًا عن المصدرية الإلهية أو الهدف الرباني في خلافة الأرض وإقامة الشرائع.

منهجية البحث:

اتبع البحث عدة منهجيات متتالية، شكلت في مجملها سلسلة متكاملة متناسقة حسب الآتي:

١. المنهج الاستقرائي غير التام: من خلال استقراء عدد غير قليل من مواقف السيرة النبوية، والشمائل المحمدية؛ لاستخراج أسس المنهج النبوي لتعزيز خلق الرحمة.

٢. المنهج التحليلي والوصفي: من خلال تحليل مواقف السيرة وتحديد الاتجاهات التربوية في خلق الرحمة.

٣. المنهج التصنيفي والتقعيدي: ويشمل تصنيف تلك الاتجاهات ومبادئها، وتقعيدها بحسب الأسس التربوية المعاصرة.

٤. المنهج الاستنتاجي والتطبيقي: ويشمل آليات تطبيق تلك المبادئ والاتجاهات المتعلقة بخلق الرحمة من تلك المواقف النبوية، وإلحاق الأسس التربوية المعاصرة معها، وإدماج الوسائل المعاصرة لتطبيقها وتعزيزها، بلغة تربوية معاصرة.

تمهيد
في مفردات العنوان

نعني بالمنهج النبوي في تعزيز قيمة الرحمة لدى الصحابة ﷺ؛ تلك الآليات والوسائل النظرية والتطبيقية للنبي ﷺ في غرس خلق الرحمة لدى الصحابة ﷺ وتنميته وتطويره، معتمدًا على المنهج الرباني؛ ولا يخرج عن إطار القرآن والسنة، سواء كان منطلقه الوحي الكريم أو اجتهاده ﷺ المعتمد على الوحي، ولا يخرج مفهوم المنهج النبوي عن أُطر الشريعة الإسلامية.

والمنهج: هو الطريق البيّن الواضح، وفي التنزيل: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨][(١)].

وهو الطريقة التي يمكن استخلاصها من خلال استقراء أقوال النبي ﷺ وأفعاله وتقريراته، وتصنيفها حسب الأسس والقواعد المشتركة بينها، ليُعمد إلى الإفادة منها وتطبيقها.

وقد اعتمد الصحابة ﷺ والعلماء هذا المنهج، وفرّعوا منه وطبّقوه.

والقيمة من (قَوَمَ) المتضمن معنى الثبات والمحافظة والملازمة والعزم[(٢)]، والاعتدال والاستقامة[(٣)]، وقِوام الشيء: نظامه الذي يعتمد عليه[(٤)].

(١) ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ٢/ ٣٨٣.
(٢) ينظر: المرجع السابق، ١٢/ ٤٩٦.
(٣) ينظر: المرجع السابق، ١٢/ ٤٩٨.
(٤) ينظر: المرجع السابق، ١٠/ ٤٩٤.

والقيم بإطارها العام هي معايير ثابتة وملازمة، تستند إلى مرجعيات تمكّن صاحبها من التفاعل والاختيار، والتحمّل من أجلها لغير منفعة ذاتية[١]، وتعزيزها يتم من خلال السُبُل العقلية والنفسية والجسدية.

والتعزيز: هو التقوية والمنعة، والتغليب على ما سواه[٢] من الصفات الأخرى.

والرحمة في اللغة: الرقة والتعطف[٣]، وفي الشرع: هي رقة تقتضي الإحسان إلى المرحوم، وتستعمل تارة في الرقة المجردة، وتارة في الإحسان المجرد عن الرقة[٤]، وهي صفة ثابتة لله ﷻ ثبوتًا يليق بجلاله؛ كما هو منهج أهل السنة والجماعة.

ويمكن الخلوص إلى أن هذه الدراسة مختصة في الطريقة الواضحة المتبعة الواردة عن النبي ﷺ سواء كانت نظرية أو تطبيقية، والتي من خلالها عمل النبي ﷺ على تقوية وتغليب وتعديل صفة الرحمة عقليًا ونفسيًا وتطبيقًا لدى الصحابة ﷺ إلى حد وصلوا فيه إلى المثالية والتمام، وأصبحت جزءًا من نظامهم الذي يتعاملون فيه ويربّون عليه أجيالهم، مستندين فيه على مرجعية شرعية بعيدة عن المنفعة الشخصية.

- **هل خلق الرحمة فطري أو مكتسب؟**

تنسحب معرفة هذا التساؤل على جميع القيم والأخلاق الإنسانية، ويعتمد على إجابته كثير من آليات تطوير وصقل القيم، وأدوات قياسه ومحدداته.

(١) الصمدي، القيم الإسلامية في المنظومة التربوية، ص١٨، بتصرف. وقد اقتصر المؤلف على المعايير العقلية والوجدانية، ولا شك أن المهارة والسلوك يُعدان من القيم أيضًا.
(٢) ينظر: ابن منظور، لسان العرب، ٥/ ٣٧٤.
(٣) ينظر: الجوهري، الصحاح، ٥/ ١٩٢٩.
(٤) المناوي، التوقيف على مهمات التعاريف ١/ ٢٤٥.

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن هذه القيمة قد تولد مع الإنسان بدرجة عالية دون تربية أو تعزيز مسبق، وهذا يفسر وجودها بشكل ملحوظ لدى الأطفال أو صغار السن دون تربية أو توجيه، ومن ثم يمكن تعزيز تلك القيمة وتنميتها واكتساب مزيد منها عن طريق التربية والتوجيه والتعزيز[1].

وتتجلى الرحمة الفطرية فيما غرسه الله ﷻ من رحمة الحيوانات بعضها بعضًا، مصداقًا لقوله ﷺ: "حتى ترفع الفرس حافرها عند ولدها خشية أن تصيبه"[2]، إضافة إلى رحمة الأم بولدها، وأمثالها مما قد يتعزز في قلب الإنسان بغض النظر عن دينه أو معتقده، وقد وظّف النبي ﷺ هذه الرحمة الفطرية ليبني عليها ويعززها في قلوب المؤمنين باعتبار أن دين الإسلام هو دين الفطرة والخير ومكارم الأخلاق، كما ثبت عنه ﷺ حين رأى المرأة التي بحثت عن ولدها فألزقته على صدرها فقال ﷺ: «أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟!»، قالوا: لا والله، وهي تقدر على أن لا تطرحه، قال ﷺ: «فالله تعالى أرحم بعباده من هذه بولدها»[3]، فهذه من الرحمة الفطرية عند الأم.

ومن هنا يمكن لأية شخصية مسلمة كانت أو غير مسلمة أن تمتلك خلق الرحمة بشكل ملحوظ، كما يمكن لها أن تفتقر -طبيعة- لهذا الخلق، وهذا يفسر وجود بعض الشخصيات غير المسلمة التي برزت في هذا المجال في حين قد نجد بعض المسلمين لا يتحلّون بهذه الصفة، باعتبار أن أية شخصية يمكنها أن تنمّي لديها هذه القيمة العظيمة، إلا أن الشريعة الإسلامية امتازت بالمنهجية الثابتة المتوازنة المتنامية

(١) جابر عبدالحميد، الذكاءات المتعددة والفهم، ص١٣، بتصرف.
(٢) متفق عليه، رواه البخاري، صحيح البخاري، ح(٥٥٤١)، ومسلم، صحيح مسلم، ح(٤٩٤٢).
(٣) متفق عليه. رواه البخاري، صحيح البخاري، ح(٥٥٤٠)، ومسلم، صحيح مسلم، ح(٤٩٤٧).

في غرس وتعزيز خلق الرحمة مما يضمن تأثيرها والعمل بها دون غلو أو انحراف أو مصلحة شخصية أو آنية، بل من منطلق العدل والمنهج الرباني الحكيم.

المنهج النبوي في تعزيز قيمة الرحمة لدى الصحابة ﷺ

يعتمد تعزيز قيمة الرحمة على عدد من الخطوات المتسلسلة منطقيًا، يتصدرها آليات الكشف عن تلك القيمة وتمييزها لدى الصحابة ﷺ؛ ليتسنى بعد ذلك العمل على صقلها وتطويرها من خلال وسائلها المتاحة، والكشف عن الثغرات ونقاط الضعف ومعالجتها وتقويمها؛ ليتم توظيفها والعمل بها لخدمة الدين وعمارة الأرض.

ويتضمن ذلك ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: المنهج النبوي في الكشف عن خلق الرحمة لدى الصحابة ﷺ.

المبحث الثاني: المنهج النبوي في تعزيز خلق الرحمة وتنميته وصقله.

المبحث الثالث: المنهج النبوي توظيف خلق الرحمة في الدعوة واستغلاله لخدمة الدين.

وفيما يأتي تفصيل ذلك.

المبحث الأول
المنهج النبوي في الكشف عن خلق الرحمة لدى الصحابة رضي الله عنهم

تعدُّ هذه الخطوة أولى خطوات غرس قيمة الرحمة وتعزيزها، والتي لا يمكن الوصول إليها دون معرفة الدرجة التي يتمتع بها الفرد من هذا الخلق الجليل؛ ليعمد إلى معالجة النقص أو ربط ما هو مكتسب بالمنهج الرباني.

وقد اعتمد المنهج النبوي -في الكشف عن تلك القيمة الخلقية لدى الصحابة رضي الله عنهم- عدة طرق مختلفة؛ كالسؤال المباشر، أو المراقبة والمتابعة (تحديد المؤشرات)، أو التحفيز والمنافسة.

كل ذلك أعطى النبي ﷺ معرفة تامة بمستويات خلق الرحمة التي يتمتع بها الصحابة رضي الله عنهم.

وينضوي المنهج النبوي في الكشف عن خلق الرحمة على ثلاثة مطالب:

المطلب الأول
السؤال المباشر

استخدم النبي ﷺ أسلوب السؤال المباشر باعتباره أحد الوسائل الممكنة

للكشف عن درجة هذا الخلق؛ كما روى الشيخان عن عائشة ﵂ أن النبي ﷺ قبّل الحسن والحسين؛ فلاحظ استغراب الأقرع بن حابس من ذلك حين سأله: تقبّلون صبيانكم؟، فاستفسر النبي ﷺ عن ذلك فعلم أن الأقرع وقومه من أهل البادية لا يقبلون أبناءهم؛ فقال ﷺ: «أوَ أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة؟»[1].

ومن خلال ذلك الموقف استطاع النبي ﷺ أن يقيم مدى الرحمة التي يتمتع بها الأقرع وقومه؛ باعتبار أن التقبيل هو أحد علامات ذلك الخلق الكريم؛ فوجّهه إلى الاهتمام بتلك الصفة والعمل على غرسها وتعزيزها في قلبه.

المطلب الثاني
المراقبة والمتابعة (تحديد المؤشرات)

تفيد المراقبة والمتابعة ملاحظة الدلالات المصاحبة للمواقف المختلفة، واستخراج المؤشّرات القابلة للملاحظة؛ سواء كانت مؤشرات سلبية أو إيجابية؛ ليُعمد إلى تقويم السلبية منها، ويُكشف عن المؤشرات الإيجابية لتعزيزها وفق استراتيجيات محددة، وذلك بعد تصنيفها وتحديد مستوياتها المختلفة[2].

وهذا من أكثر الأساليب استخدامًا وكشفًا عن القيم والطبائع المختلفة بشكل عام، وعن الرحمة خاصة، ويعتمد على جمع المعلومات من خلال المواقف المتعددة؛ فكثيرًا ما كان النبي ﷺ يراقب أصحابه ﵃ أو غير أصحابه من المشركين أو غيرهم ليعرف مدى امتلاكهم لخلق الرحمة، وتوجيههم بناء على هذه المعرفة التراكمية.

(١) متفق عليه. رواه البخاري، صحيح البخاري، ح(٥٥٣٩)، ومسلم، صحيح مسلم، ح(٤٢٨١).
(٢) الصمدي، القيم الإسلامية في المنظومة التربوية، ص ٧٣، بتصرف.

لذا نجده ﷺ كثيرًا ما يوكل مهامًا معينة لأشخاص بأعينهم؛ يصعب من خلالها معرفة سبب اختيار ذلك الشخص دون غيره، إلا ما كان عند النبي ﷺ عنه من المعرفة المسبّقة الناتجة عن المراقبة والمتابعة؛ كما ثبت عنه ﷺ الاستعانة ببعض المشركين في بداية الدعوة؛ كعمه أبي طالب على الرغم من عدم إسلامه(١)، وكما وجّه الصحابة ﷺ من الهجرة إلى الحبشة لما عند حاكمها من العدل والرأفة بالناس(٢).

وقد كان يلحظ النبي ﷺ من أصحابه ﷺ ما كانوا يمتازون به من الرحمة؛ ليُعمد إلى تعزيزها أو تقويمها في حال خروج شيء منها عن منهج الشريعة الإسلامية؛ كما ثبت عنه ﷺ لما رآى أبا مسعود البدري يضرب غلامًا له؛ فقوّم ذلك بمزيد من غرس الرحمة والرأفة في قلبه قائلًا: «الله أقدر عليك، منك عليه»(٣).

وقد استخدم الصحابة ﷺ ذلك الأسلوب -أيضًا- في مراقبة النبي ﷺ في تصرفاته ومعرفة مدى الرحمة التي كان يتمتع بها ﷺ؛ لما تبوأ في قلوبهم من مكانة الاقتداء والتشريع؛ فقد ثبت عن أنس ﷺ أنه راقب خلق النبي ﷺ في التعامل معه وهو يخدمه، وعلم ما كان في خلقه القويم من الرحمة والرأفة والشعور بالآخرين، فقال ﷺ: خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لي: أف، ولا: لم صنعت؟، ولا: ألاّ صنعت(٤)، وقوله ﷺ: «ما رأيت أحدًا أرحم بالعيال من رسول الله ﷺ»(٥).

(١) انظر: البخاري، صحيح البخاري، ح(١٢٧٢)، ومسلم، صحيح مسلم، ح(٣٥).
(٢) انظر: البخاري، صحيح البخاري، ح(٢٩٠٣) ومسلم، صحيح مسلم، ح(٤٥٥٨).
(٣) صحيح. رواه مسلم، صحيح مسلم، ح(٣١٣٥).
(٤) صحيح. رواه البخاري، صحيح البخاري، ح(٥٥٧٨).
(٥) صحيح. رواه مسلم، صحيح مسلم، ح(٤٢٨٠).

المطلب الثالث
الحث والمنافسة

كثيرًا ما يُستخدم أسلوب المنافسة والتحفيز والإثارة لمعرفة مدى الخلق الذي يتمتع به الشخص؛ ويكون ذلك من خلال وضعه في تحدٍّ مع نفسه، أو وعده بمكافأة أكبر من التضحية أو الجهد الذي سيبذله تلقاء الرحمة التي سيتمتع بها، مما يكشف مدى الصبر والرأفة التي وصلت إليها نفوس الصحابة ﷺ لتوظيفها واستغلالها في خدمة الدين.

ومن هنا، حضّ النبي ﷺ على اتباع خلق الرحمة في التعامل مع جميع الخلق؛ ليدخل في ذلك الحيوان والنبات والجماد، والمملوك وغير المملوك، بل وحتى الكافر؛ كما في قوله ﷺ: «لا يرحم الله من لا يرحم الناس»[١]، دون اعتبار لجنس أو دين أو نسب[٢]. والأمثلة على ذلك كثيرة.

منها ما أعطاه النبي من الحث والمنافسة على تحصيل رحمة الله وتلمّس أوقات إجابتها، وأسبابها؛ ليكشف مدى الهمة التي يمكن للصحابة ﷺ أن يتحصلوا بها رحمة الله ﷻ في قوله ﷺ: «إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل»[٣]، فإذا «مضى شرطى الليل أو ثلثاه، ينزل تبارك وتعالى إلى السماء الدنيا، فيقول: هل من سائل يعطى؟ هل من داعٍ يستجاب له؟ هل من مستغفر فيغفر له؟ حتى ينفجر الصبح»[٤].

(١) متفق عليه. رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله ﷻ، (٦٩٤١)، ومسلم، كتاب الفضائل، باب رحمته ﷺ بالصبيان والعيال وتواضعه وفضل ذلك (٢٣١٩).
(٢) ينظر: المباركفوري، تحفة الأحوذي، ٦/ ٤٢.
(٣) صحيح. رواه مسلم، صحيح مسلم، ح (٢٧٥٩).
(٤) صحيح. رواه مسلم، صحيح مسلم، ح (٧٥٨).

المبحث الثاني
المنهج النبوي في تعزيز خلق الرحمة وتنميته وصقله

يعتمد تعزيز خلق الرحمة -غالبًا- على معرفة مدى امتلاك الصحابة ﷺ لها، وأحيانًا ما يعزز المنهج النبوي هذا الخلق ويغرسه في قلوب المسلمين دون النظر إلى درجاته المتفاوتة لدى كل منهم؛ وعلى كلتا الحالتين فقد استخدم المنهج النبوي ذلك الخلق الكريم لتوجيه سلوك المسلم وتربيته بغض النظر عما كان الشخص يملك ذلك الخلق بنسبة ملحوظة منذ ولادته أو أنه اكتسبها بسبب ظروف أو بيئة أو تربية لاحقًا.

وقام المنهج النبوي في تعزيز خلق الرحمة وتنميته لدى الصحابة ﷺ من خلال طرق عدة، نلخصها فيما يلي:

المطلب الأول
توظيف البيئة المحيطة لتعزيز خلق الرحمة

يمكن للبيئة أن تكون الوسيلة الأقوى في ترويض المسلم على خلق الرحمة، من خلال عناصره المحيطة به، والتي ما يزال يتعامل معها باستمرار باعتبارها أكثر الوسائل احتكاكًا به؛ سواء كانت بيئة أسرية أو مجتمعية أو غيرها من المواقف المساندة.

وتشمل البيئة في عصرنا الحاضر مناهج التعليم ووسائل الإعلام والتواصل؛ إضافة إلى الأسرة والأصدقاء وغيرها من العوامل المحيطة بالفرد؛ بدرجات متفاوتة بالتأثير والتربية.

كما يمكن خلق بيئة محددة من خلال مناهج دراسية، أو بيئة مغلقة، أو دورة تدريبية، أو نشاط تعزيزي أو غير ذلك[1]، وهدف البيئة قائم على التربية والتعليم والتأهيل المستمر لتعزيز خلق الرحمة؛ بحيث إن فُقدت البيئة المحيطة بالفرد؛ كالغربة أو طبيعة العمل أو وقوع ظرف خاص، فإنه يستعاض عنها ببيئة صُغرى مفتعلة.

ومن هنا أمر الإسلام بالتفاعل مع الفقراء والضعفاء والمساكين والأيتام، وعيادة المرضى، ومخالطة الخدم والعبيد، ومؤاكلتهم ومعاشرتهم؛ كل ذلك يشكل بيئة تعزز في قلب المسلم الرحمة والرأفة وتعظيم نعمة الله ﷻ.

إلا أنه لم يقتصر على ذلك؛ بل أمر بالرحمة صراحة في التعامل مع كل عنصر من عناصر البيئة؛ سواء كان قريبًا أو بعيدًا؛ ابتداء من الوالدين في قوله ﷻ: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾ [الإسراء:٢٤]، وذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل؛ ولهذا ختم الله ﷻ وصيته في آخر الآية بالبراءة من الكبر والقسوة التي تناقض الرحمة بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا﴾ [النساء:٣٦].

حتى أمر بذلك الخلق النبيل في التعامل مع الحيوان الأعجم والطير وغير ذلك؛ كما في قوله ﷺ: «والشاة إن رحمتها؛ رحمك الله»[2]، حتى إنه ﷺ كان رحيمًا بالجماد حين مسح على الجذع رحمة بحنينه إلى أن يخطب عليه[3].

(١) الصمدي، القيم الإسلامية في المنظومة التربوية، ص ٧٧، بتصرف.
(٢) رواه أحمد، المسند، (١٥٦٣٠)، والحاكم، المستدرك؛ (٧٥٦٢) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، وقال الألباني: «صحيح»، ينظر: صحيح الترغيب والترهيب (٢٢٦٤).
(٣) صحيح. رواه مسلم، صحيح مسلم، ح(٣٣١٨).

وقد استخدم النبي ﷺ المواقف المختلفة لتعزيز خلق الرحمة والرأفة في قلوب الصحابة رضي الله عنهم؛ حين قدم ﷺ بسبي، فإذا امرأة من السبي تسعى قد تحلّب ثديها، حتى إذا وجدت صبيًا في السبي أخذته فألزقته ببطنها فأرضعته، فقال رسول الله ﷺ: «أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟!»، قالوا: لا والله، وهي تقدر على أن لا تطرحه، قال ﷺ: «فالله تعالى أرحم بعباده من هذه بولدها»[1]، فاستغل النبي ﷺ هذا الموقف ليُظهر للصحابة رضي الله عنهم مدى رحمة الله ﷻ، ويعزز في نفوسهم مدى عظم هذا الخلق العظيم؛ ليتخلقوا به، ويمارسوه، ويجعلوه أساسًا في طبائعهم.

وقد تكرر ذلك في مواقف عدة؛ منها ما رواه كعب بن مالك عن أبي قتادة بن ربعي أنه كان يحدث: أن رسول الله ﷺ مُر عليه بجنازة فقال: «مستريح، ومستراح منه»، قالوا: يا رسول الله! ما المستريح والمستراح منه؟، قال: «العبد المؤمن يستريح من نصب الدنيا وأذاها إلى رحمة الله، والعبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب»[2].

وهكذا؛ ما زال الهدي النبوي يعزز هذا المفهوم لدى الصحابة رضي الله عنهم حتى أصبح جزءًا ركيزًا من طباعهم وملكات أفعالهم؛ ففتحوا به البلاد وقلوب العباد.

المطلب الثاني
تأطير خلق الرحمة وضبطه بالمنهج الرباني

إن خلق الرحمة لا يفضي إلى الذل والخضوع في غير ما أمر الله به، ولا يقتضي العمل به أن يكون المسلم منعدم العزة والشجاعة والدفاع عن الحق

(١) متفق عليه. رواه البخاري، صحيح البخاري، ح(٥٥٤٠)، ومسلم، صحيح مسلم، ح(٤٩٤٧).
(٢) متفق عليه. رواه البخاري، صحيح البخاري، ح(٦٠٣١)، ومسلم، صحيح مسلم، ح(١٥٧٩).

والدين؛ كما يزعم بعض المنحرفين من الصوفية أو الرهبانية أو غيرهم من الديانات والمناهج غير السوية؛ ولهذا وضع الله ﷻ أُطُرًا متعددة لهذا الخلق؛ حتى لا يُستغل بطريقة خطأ، أو يُترك لشبهة مضللة تدّعي نصرة الدين وإعلاء كلمة الله ﷻ.

وتتضح الصورة في قوله ﷻ واصفًا المؤمنين: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح:٢٩]، وقوله ﷻ: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ﴾ [الأعراف:١٥٦-١٥٧].

ومن جهة أخرى فإن الله ﷻ قال في الحديث القدسي: «إن رحمتي تغلب غضبي»[(١)]، وتواترت الأحاديث على أن الله شديد الرحمة بعباده الذين يستحقون تلك الرحمة؛ فقد «جعل الله الرحمة مئة جزء؛ فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءًا، وأنزل في الأرض جزءًا واحدًا، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلق، حتى ترفع الفرس حافرها عند ولدها خشية أن تصيبه»[(٢)]، وغيرها الكثير من الآيات والأحاديث المتواترة في هذا المعنى.

فيبقى المؤمن بين الانضباط والالتزام بما أمر الله ﷻ ورسوله ﷺ به، وبين رجائه برحمة الله الواسعة؛ ليدخل في إطار متوازن بعيد عن الجفاء أو الغلو في التعاطي مع هذا الخلق سواء في تعامله مع الغير أو تفاعله مع الأوامر الربانية.

وقد طبق هذا الانضباط نبي الرحمة ﷺ حين توفي ابنه إبراهيم عليه السلام؛ فكانت رحمته به أعظم ما تكون لابن من أبيه؛ فدمعت عيناه وهو يراه يجود بنفسه؛ فعجب الصحابة رضي الله عنهم من بكائه فقال ﷺ: «إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم

(١) متفق عليه. رواه البخاري، صحيح البخاري، ح(٦٨٥٥)، ومسلم، صحيح مسلم، ح(٤٩٣٩).
(٢) متفق عليه، رواه البخاري، صحيح البخاري، ح(٥٥٤١)، ومسلم، صحيح مسلم، ح(٤٩٤٢).

لمحزونون»[1]؛ فلم تدفعه رحمته ﷺ إلى الخروج عن إرادة الله وطاعته والرضى بقدره.

وقد أمر ﷺ بهذا المنهج أيضًا أصحابه ﷺ؛ فحين توفي عثمان بن مظعون ﷺ، حزنت أم العلاء، فدفعتها رحمتها به أن تقول: رحمة الله عليك أبا السائب!؛ فشهادتي عليك لقد أكرمك الله؛ فعلّمها النبي ﷺ أن لا تأخذها العاطفة والرأفة والرحمة إلى التألي على الله فقال: «وما يدريك أن الله أكرمه؟»، فقالت: لا أدري بأبي أنت وأمي يا رسول الله!، فقال ﷺ: «أما عثمان فقد جاءه اليقين وإني لأرجو له الخير، والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي»[2]؛ فكانت ﷺ لا تزكي بعده أحدًا أبدًا، عملًا بمنهج النبوة في تأطير خلق الرحمة والرأفة بإسلام الأمر إلى الله دون المغالاة أو الشهادة لأحد بجنة أو نار.

وعلى ذلك يمكن استغلال المواقف أو الظروف والبيئات المحيطة لتعميق خلق الرحمة وضبطه بالمنهج الرباني، بعيدًا عن البيئة المادية البعيدة عن القيم والأخلاق في التعامل والشعور مع الآخرين، وترك الانحراف في الفهم الدافع إلى الرهبانية والتعدي على حقوق الله ﷻ وإرادته في خلقه، أو اتخاذ الدنية في الدين.

ومن ناحية أخرى؛ فإن المنهج النبوي كان رياديًا في تجنب المبالغة في الرحمة دون العدل، فيقع بمقتضاها الظلم؛ إذ يمكن أن تأخذ القاضي أو الحاكم مبالغة في الرحمة إلى حد تضيع فيها الحقوق، وتختل بسببها العدالة والحكمة؛ ولهذا لما سأل أبو ذرٍّ الغفاري ﷺ الإمارة منعها النبي ﷺ عنه؛ لأن أبا ذر ﷺ يتمتع بقيم روحانية وعاطفية عالية تمنعه من أن يكون شديدًا حازمًا في مواقف الحزم التي يحتاجها الوالي، فخاف عليه ﷺ من أن تأخذه رحمته وعاطفته على الناس من أن يحاسب بعضهم

(١) متفق عليه. رواه البخاري، صحيح البخاري، ح(١٢٢٠)، ومسلم، صحيح مسلم، ح(٤٢٧٩).
(٢) صحيح. رواه البخاري، صحيح البخاري، ح(٢٤٩٠).

أو يعاقب آخرين، فضرب النبي ﷺ على منكبيه، ثم قال: «يا أبا ذر! إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزيٌ وندامة إلا من أخذها بحقها، وأدّى الذي عليه فيها»(١).

المطلب الثالث
القدوة ورسم الأنموذج

لقد امتاز المنهج النبوي عن كافة المناهج التربوية والأخلاقية الأخرى أن الله ﷻ بعث نبيه أسوة وقدوة، ومثالًا على تطبيق شرعه، ودليلًا على أن هذا الدين بكافة منظوماته العقدية والتعبدية والأخلاقية يدخل ضمن حدود القدرة البشرية، وتفسيرًا لكثير من النصوص التي قد يُختلف على فهمها نظريًا.

إضافة إلى أن النبي ﷺ بداية كان متصفًا بحسن الشمائل والأخلاق، إلى جانب غيرها من الصفات البشرية الأخرى؛ مصداقًا لقوله ﷻ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب:٢١]، وقوله ﷻ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم]، وكما قال حسان بن ثابت:

وأحسن منك لم تر قط عيني ... وأجمل منك لم تلد النساء
خُلقتَ مبرأً من كل عيب ... كأنك قد خلقت كما تشاء(٢)

قال المناوي: "لحيازته جميع المحاسن والمكارم وتكاملها فيه، ولما اجتمع فيه من خصال الكمال وصفات الجلال والجمال ما لا يحصره حدٌّ ولا يحيط به عَدٌّ"(٣).

وكما أسلفنا في المقدمة فإن ذلك كان منشؤه شخصية النبي ﷺ، إضافة

(١) صحيح. رواه مسلم، صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب كراهة الإمارة بغير ضرورة، ح(٣٤٠٤).
(٢) حسان بن ثابت، ديوان حسان بن ثابت، ١/ ٦٦.
(٣) المناوي، فيض القدير، ٥/ ٩٠.

إلى ما حباه الله ﷻ من النبوة، فليس فيه مدخل لأهل التأويل أن يدّعوا عجز الإنسانية عن التأسي به لخصوصية نبوته، كما لا يُنسب تفرّده في تمام الأخلاق إلى ذاته ليسحب منه المغرضون نبوته فينسبون إنجازاته إلى بشريته؛ وإنما كلٌّ منهما تمتعت به شخصيته الفذّة ﷺ؛ ولهذا جعله الله ﷻ مثالًا للرحمة في الدنيا والآخرة فقال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء] من الجن والإنس؛ مسلمين وغير مسلمين، وكذلك الطير والبهائم وجميع الخلق؛ رحمة لهم من مشقة الدنيا وعنائها، وهول الآخرة وعذابها؛ فكان من طبعه الرفق واللين، وفي قلبه العطف والرأفة، أرسله الله ﷻ من أنفس الناس يشعر بشعورهم، ويعز عليه كدهم وعنتهم كما وصفه الله ﷻ: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٢٨﴾ [التوبة].

وتمثلت هذه القيمة الرفيعة في منهجه ﷺ؛ فكم فاضت عيناه على صحابته رحمة بهم، وكم اعتصر قلبه على أمته حرصًا عليهم؛ حتى سلّاه الله ﷻ بقوله: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٣﴾ [الشعراء:٣]، فكان قدوة يُحتذى برحمته، كما ثبت عنه ﷺ أنه أُتي بطفل قضى، فرُفع إليه ونفسه تتقعقع ففاضت عيناه الشريفتان ﷺ. فقال سعد: يا رسول الله، ما هذا؟!، فقال: «هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء»[(١)]، فكان ﷺ مثالًا للرحمة، يأمر بها ويتمثلها، كما ثبت عن أسامة ابن زيد رضي الله عنه حين قال: كان رسول الله ﷺ يأخذني فيقعدني على فخذه، ويُقعد الحسن على فخذه الأخرى، ثم يضمهما، ثم يقول: «اللهم ارحمهما؛ فإني أرحمهما»[(٢)]، وكان ﷺ يلاعب أمامة بنت أبي العاص على كتفيه[(٣)] وأم خالد بنت خالد بن سعيد[(٤)] وهن طفلات.

(١) متفق عليه. رواه البخاري، صحيح البخاري، ح(١٢٠٤)، ومسلم، صحيح مسلم، ح(١٥٣٠).
(٢) صحيح. رواه البخاري، صحيح البخاري، ح(٥٥٤٤).
(٣) صحيح. رواه البخاري، صحيح البخاري، ح(٥٥٣٧).
(٤) صحيح. رواه البخاري، صحيح البخاري، ح(٥٥٣٤).

المطلب الرابع
استخدام المثيرات والوسائل المناسبة

من أهم العوامل المساعدة على تعزيز خلق الرحمة لدى المربي، أو المعلم؛ اختيار الوقت المناسب، والوسيلة المناسبة لتوظيف ظرف معيّن، وإيصال فكرة ما، ويتطلب ذلك قدرًا عاليًا من المهارة للتوفيق بين تلك الظروف، واستغلالها لإسقاط قدرٍ عالٍ من التأثير على المخاطَبين، وتطلّعًا لأن تكون أذهان السامعين أنشط، ونفوسهم أكثر استعدادًا للاستجابة والتأثر، وقلّ من برع بهذا على مدى كثير من العصور.

وتُعنى المثيرات والوسائل التعزيزية بزيادة الانتباه والاهتمام لدى المتعلّم؛ مما يتناسب طرديًا مع التفاعل الإيجابي لتعلم خلق الرحمة وتطبيقه، واتخاذه منهجًا في الحياة وليس موقفًا مؤقتًا؛ لتصل بالسامع إلى الاقتناع به والدفاع عنه؛ بل والتضحية لأجله، والمبادرة إلى نقله للآخرين[1].

ولقد كان المنهج النبوي رائدًا في استخدام تلك الوسائل والمثيرات في غرس خلق الرحمة، وتوظيفها للدعوة والدين، كما كان للنبي ﷺ عصا السبق في ذلك؛ ليس بسبب الوحي فحسب، بل بما وهبه الله ﷻ من الخلق العظيم المكوّن لشخصيته الشريفة ﷺ، مصداقًا لقوله ﷻ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم].

ومن أعظم المثيرات ووسائل التحفيز التي اتبعها المنهج النبوي لتعزيز خلق الرحمة ما جعلت له من المثوبة والرفعة، وما بنت عليه الأجر العظيم؛ سواء كانت رحمة بالقريب أو البعيد؛ إنسانًا أو حيوانًا أو حتى غير ذلك، كما صحّ عنه ﷺ أنه قال: «ما من الناس من مسلم يُتوفى له ثلاث لم يبلغوا

(١) الصمدي، القيم الإسلامية في المنظومة التربوية، ص ٩٤-٩٨، بتصرف.

الحلم إلا أدخله الله الجنة، بفضل رحمته إياهم»[1]؛ ولذلك تواترت المعاني الواردة في الأحاديث النبوية على أن «الراحمون يرحمهم الرحمن»[2] وأن جزاء الرحمة بالمخلوق تجلب رحمة الخالق؛ كما في قوله ﷺ: «ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»[3]؛ وقوله: «من في الأرض» تشمل المسلم وغير المسلم؛ وحتى الحيوان والنبات؛ بل ويتعدى الأمر إلى البيئة المحيطة بالمسلم؛ فالتفاعل معها بشكل صحيح وفطري بعيد عن الإهلاك والاستغلال غير الصحيح هو من الرحمة بها وبمن يسكنها؛ ولهذا جعلها الله ﷻ موجبة للمغفرة والرحمة من باب قوله ﷻ: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرحمن]، والله ﷻ أولى بالرحمة بعباده منهم ببعضهم البعض؛ كما ثبت عن النبي ﷺ أن الله ﷻ جعل الرحمة مئة جزء أنزل واحدة منها الأرض وادّخر تسعة وتسعين للمؤمنين يوم القيامة؛ وبذلك الجزء تتراحم المخلوقات جميعًا؛ الإنسان والحيوان، حتى إن الدابة لترفع حافرها لوليدها حتى يرضع، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما يئس من الجنة[4].

وقد ورد عن النبي ﷺ أحاديث عدة استخدم فيها منهج الترغيب والمثيرات والوسائل النفسية ليغرس في طبع المسلم هذا الخلق الكريم كما ورد عنه ﷺ أن موقفًا واحدًا في الرحمة يغفر للعبد ذنوبه التي أسلفت؛ وضرب لذلك مثل البغي من بغايا بيني إسرائيل؛ كافأها الله لرحمتها بكلب كاد العطش أن يقتله؛ فسقته فغفر الله لها به[5]، على الرغم من عظم الكبيرة التي اعتادت عليها.

(١) صحيح. رواه البخاري، صحيح البخاري، ح(١١٧١).
(٢) صحيح. رواه الترمذي، سنن الترمذي، ح(١٩٢٤)، وقال: «حسن صحيحى، وصححه الألباني، السلسلة الصحيحة، ح(٩٢٢).
(٣) صحيح. رواه الترمذي، سنن الترمذي، ح(١٩٢٤)، وقال: «حسن صحيحى، وصححه الألباني، السلسلة الصحيحة، ح(٩٢٢).
(٤) متفق عليه. رواه البخاري، صحيح البخاري، ح(٥٥٤١)، ومسلم، صحيح مسلم، ح(٤٩٤٢).
(٥) متفق عليه. رواه البخاري، صحيح البخاري، ح(٣٢٠٨)، ومسلم، صحيح مسلم، ح(٤١٦٤).

ومن جهة أخرى فقد ورد هذا الأسلوب أيضًا في الترهيب من الشدة والغلظة في غير موضعها؛ كما في قوله ﷺ: «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه»[١]، وقوله ﷺ: «لا يرحم الله من لا يرحم الناس»[٢]، حتى أنه جعل الخير كله في الرفق فقال: «من يحرم الرفق؛ يُحرم الخير»[٣].

المطلب الخامس
التحلّم والتربية المستمرة

ارتكز المنهج النبوي في تربية الصحابة ﷺ؛ سواء على الرحمة أو غيرها من مكارم الأخلاق على غرس تلك القيم إيمانيًا وتعلّمها بشتى الوسائل المرئية من المواقف أو المسموعة من الآيات والأحاديث؛ إلا أن بعض الصحابة ﷺ كانوا يتصفون بتلك الصفة فطرة؛ فكان دور المنهج النبوي بتعزيز تلك الصفة والرقي فيها وتطويرها، إضافة إلى توظيفها للدعوة الإسلامية ونشر الدين وتعليم الناس.

وقد أمرت السنة النبوية بتربية النفس على الخلق القويم، وخاصة على الرحمة والحلم والأناة؛ لما ورد عن النبي ﷺ قوله: «إنما العلم بالتعلم، والحلم بالتحلم»[٤]؛ وهو أمر واجب على كل مسلم، أن يتعلم حدود الرحمة، وآلياتها، وفضلها، إضافة إلى تربية نفسه على الرحمة، والعمل بها ومجاهدة نوازع النفس من الخروج عنها بأمر كالغضب أو العصبية أو

(١) صحيح. رواه مسلم، صحيح مسلم، ح(٤٦٩٨).
(٢) صحيح. رواه البخاري، صحيح البخاري، ح(٦٨٢٨).
(٣) صحيح. رواه مسلم، صحيح مسلم، ح(٤٦٩٦).
(٤) حسن. رواه الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ٩/ ١٢٧، وحسّنه الألباني، صحيح الجامع الصغير، ح(٢٣٢٨).

الغلظة والشدة في غير مواضعها المشروعة، سواء كانت تلك التربية قائمة على التدرج أو التعلم أو التربية المستمرة للنفس والغير.

وبهذا أمرت السنة النبوية حتى تصبح هذه الصفة الحميدة طبعًا لا يتغير مع تغير الظروف والأشخاص كما ورد عن النبي ﷺ حين قال: «والذي نفسه بيده، لا يضع الله رحمته إلا على رحيم»، قالوا: يا رسول الله، كلنا يرحم!، قال: «ليس برحمة أحدكم صاحبه؛ يرحم الناس كافة»[1].

لذلك يحتاج غرس خلق الرحمة في النفس المسلمة وتعزيزه إلى عملية متتابعة من التربية المتواصلة، والتعليم المستمر لفضل هذا الخلق ومكانته في الإسلام للوصول إلى المستوى المطلوب من الخلق الكريم، مما يوجب تكثيف السبل والمناهج التربوية التي تستند إلى مراحل ومستويات تكاملية من الطفولة إلى ما بعدها.

ولا يخفى على المختصين والمطلعين على السنة النبوية أن الأسلوب النبوي كان متبصرًا في ذلك ومعتمدًا بشكل كبير على تنمية شخصيات الصحابة رضي الله عنهم وبنائها، بحسب الفروق الفردية التي يمتلكها كل منهم من الرحمة الفطرية أو المكتسبة؛ ليُعمد إلى تطويرها وتدريبها في مواقف عدة؛ فلما جاءه ﷺ سبي في معركة ما، فإذا امرأة من السبي قد تحلب ثديها تسقي، إذا وجدت صبيًّا في السبي فأخذته، فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال النبي ﷺ موظّفًا هذا الموقف بمهارة تواصلية نفّاذة: «أترون هذه طارحة ولدها في النار؟»، قلنا: لا، وهي تقدر على أن لا تطرحه، فقال: «لله أرحم بعباده من هذه بولدها»[2]، فانغمس ذلك المفهوم في قلوب الصحابة

(١) صحيح. رواه الحاكم، المستدرك على الصحيحن، ح(٧٣١٠)، وقال: «صحيح الإسناد»، وصححه الألباني، صحيح الترغيب والترهيب، ح(٢٢٥٣).

(٢) متفق عليه. رواه البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله معانقته،

ﷺ وعقولهم، وصار مكوِّنًا أساسيًا في شخصياتهم، وعاملًا مؤثرًا في تصرفاتهم مع الله ﷻ، ومع الناس، وظهرت حكمة المنهج النبوي في إظهار عظمة الله ﷻ وسعة رحمته بالناس باستخدام التأديب والتعليم والتربية.

المطلب السادس
الدعاء وطلب الإعانة من الله ﷻ على التخلّق بخلق الرحمة

لقد تميّز المنهج النبوي عن غيره من المناهج التربوية الأخرى -سواء كانت مناهج ذوات مراجع دينية أو مادية- بالعامل الروحي المتمثل بسؤال الله ﷻ رحمته والاستعاذة من سخطه وغضبه؛ كما ثبت عن النبي ﷺ في مواضع يصعب حصرها لكثرة ورودها وتعددها؛ منها ما جاء في القرآن الكريم؛ كقوله ﷻ: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١١٨﴾ [المؤمنون]، وكقوله ﷻ: ﴿وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآ﴾ [البقرة:٢٨٦]، كما ورد عن النبي ﷺ في قوله ﷺ: «... وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم»[(١)]، وقوله ﷺ: «اللهم افتح لي أبواب رحمتك»[(٢)].

كما كان من منهجه ﷺ أنه كان يستعيذ من سخط الله وغضبه كما في دعائه ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك، وتحول عافيتك، وفجاءة نقمتك، وجميع سخطك»[(٣)]، وقوله ﷺ: «ولا تسلط علينا من لا يرحمنا»[(٤)]، وأمثال ذلك كثيرة.

ح(٥٩٩٩)، ومسلم، صحيح مسلم، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله ﷻ وأنها سبقت غضبه، ح(٢٧٤٥).

(١) متفق عليه. رواه البخاري، صحيح البخاري، ح(٥٨٥١)، ومسلم، صحيح مسلم، ح(٤٨٧٦).

(٢) صحيح. رواه مسلم، صحيح مسلم، ح(١١٦٥).

(٣) صحيح. رواه مسلم، صحيح مسلم، ح(٧٥١).

(٤) حسن. رواه الترمذي، سنن الترمذي، ح(٢٧٨٣)، وقال: «حديث حسن غريب»، وحسنه الألباني،

إضافة إلى ما أنف ذكره فقد أرشد المنهج النبوي إلى تربية النفس من خلال طلب المسلم أن يرزقه هذا الخلق النبيل ويصرف عنه الشدة والغلظة في غير موضعهما، الأمر الذي لا يراعيه أي منهج تربوي أو مدني معاصر، كما ثبت عنه ﷺ أنه استعاذ من منكرات الأخلاق، والأعمال[1]، كما ثبت عنه ﷺ أنه سأل الله أن يسلل سخيمة الصدر[2]، وجاء في دعائه ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من... القسوة...، والذلة والمسكنة»[3].

المطلب السابع
تقويم الأخطاء والثغرات المنافية لخلق الرحمة

لا يساعد الكشف عن الثغرات والأفعال المنافية لخلق الرحمة على معرفة مدى الرحمة التي يتمتع بها الأشخاص فحسب، بل إن المنهج النبوي أرفد ذلك بمعرفة ما يمكن أن يُعزى لكل واحد من الصحابة رضي الله عنهم من المهام، وما يمكن أن يُفاد منه.

إضافة إلى ما يجب أن يتم علاجه من الخلل الواقع في مفهوم هذا الخلق الكريم أو تطبيقه؛ ولذلك كانت أولى درجات الوقاية من الأمراض المؤثرة على خلق الرحمة لدى الصحابة رضي الله عنهم؛ تحديد مفهوم هذا الخلق العظيم وتحديد جوانبه، وتنقيته من الشوائب المضببة عليه؛ من المحدودية في استخدامه مع الأقارب أو الأحبة دون غيرهم، ومن نوازع

انظر: صحيح الترمذي.

(١) صحيح. رواه الترمذي، سنن الترمذي، ح(٢٨٤٠)، وقال: «حديث حسن غريب»، وصححه الألباني، انظر: صحيح الترمذي.

(٢) صحيح. رواه الترمذي، سنن الترمذي، ح(٢٨١٦)، وقال: «حديث حسن صحيح»، وصححه الألباني، انظر: صحيح الترمذي، وسخيمة الصدر: غله وحقده وقسوته.

(٣) صحيح. رواه الحاكم، المستدرك على الصحيحين، ح(١٩٤٤)، وقال: «صحيح على شرط الشيخين»، وصححه الألباني، صحيح الجامع، ح(١٢٨٥).

النفس البشرية وضعف الإيمان؛ ولهذا كان النبي ﷺ يقول: «لن تؤمنوا حتى تراحموا»، قالوا: يا رسول الله! كلنا يرحم، فما كان من النبي ﷺ إلا أن أوضح المفهوم في ذلك قائلًا: «إنه ليس برحمة أحدكم صاحبه، ولكنها رحمة العامة»[١].

وكذلك عالج النبي ﷺ انحراف مفهوم الرحمة لدى الأعرابي الذي بال في المسجد حين قال: اللهم ارحمني ومحمدًا ولا ترحم معنا أحدًا، فقوّم النبي ﷺ ما طغى عليه من حب الذات والتسرع في الحكم قائلًا: «لقد حجّرت واسعًا»[٢] تنبيها له ولغيره من سعة الرحمة بالناس دون تمييز.

ولهذا حيّد النبي ﷺ مفهوم الطبقية والعنصرية من الرحمة؛ وأنها حق لكل مخلوق كما في قوله ﷺ: «ليس منا من لم يرحم صغيرنا، ويعرف شرف كبيرنا»[٣]، وتتضح تلك الصورة في حديث أبي مسعود البدري حين ضرب غلامًا له حين سمع النبي ﷺ منكرًا هذا التصرف المنافي لخلق الرحمة بالعبيد فقال له: «اعلم أبا مسعود! لله أقدر عليه منك عليه»[٤].

ويتسع هذا المفهوم حتى يصل إلى تقويم الأفعال المنافية للرحمة مع غير المسلم كما قال النبي ﷺ لعائشة حين زجرت اليهود ولعنتهم لما قالوا للنبي ﷺ: السام عليك، فنهاها النبي ﷺ: «مهلًا يا عائشة! عليك بالرفق، وإياك والعنف والفحش»، وفي رواية مسلم: «إن الله يعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على سواه»[٥]، ومثله ما ورد عنه ﷺ حين سأله رجل أن يدعو على المشركين؛ فصحح النبي ﷺ هذا

(١) صحيح. رواه الحاكم، المستدرك على الصحيحن، ح(٧٣١٠)، وقال: «صحيح الإسناد»، وصححه الألباني، صحيح الترغيب والترهيب، ح(٢٢٥٣).
(٢) صحيح. رواه البخاري، صحيح البخاري، ح(٥٥٥١).
(٣) صحيح. رواه الترمذي، سنن الترمذي، ح(١٩٢٠)، وصححه الألباني، السلسلة الصحيحة، ح(٢١٩٦).
(٤) صحيح. رواه مسلم، صحيح مسلم، ح(٣١٣٥).
(٥) متفق عليه. رواه البخاري، صحيح البخاري، ح(٥٥٧٠)، ومسلم، صحيح مسلم، ح(٤٦٩٧).

الفكر بقوله: «إني لم أبعث لعانًا، وإنما بعثت رحمة»[١]، فالداعية يرجو رحمة الناس وإنقاذهم من النار؛ إلا إن اعتدوا وبغوا فعند ذلك ثبت عنه ﷺ أنه دعا على المشركين[٢].

ويدخل في ذلك الحيوان والنبات، ويحرم الاستهانة بهما والغلظة عليهما، وقد جاء ذلك مباشرًا في إعلان النبي ﷺ دخول امرأة النار في هرة؛ إذ إنها لم ترحمها حين ربطتها ولم تطعمها، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض[٣]، كما صحّ عن النبي ﷺ الإنكار على الفتى الأنصاري حين شكى جملُه قلة إطعامه وإجهاده، وأمره أن يرحمه ولا يُهضمه حقه، فقال له ﷺ: «أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها ... »[٤].

(١) صحيح. رواه مسلم، صحيح مسلم، ح(٤٧٠٤).
(٢) متفق عليه. رواه البخاري، صحيح البخاري، ح(٩٤٨)، ومسلم، صحيح مسلم، ح(١٠٨٥).
(٣) متفق عليه. رواه البخاري، صحيح البخاري، ح(٧٠٣) ومسلم، صحيح مسلم، ح(٤١٦٠).
(٤) صحيح. رواه أبو داود، سنن أبي داود، ح(٢٢٩٧)، وصححه الألباني، السلسلة الصحيحة، ح(٢٠).

المبحث الثالث
المنهج النبوي في توظيف خلق الرحمة في الدعوة واستغلاله لخدمة الدين

يعتمد المنهج النبوي في توظيف خلق الرحمة واستغلاله لخدمة الدين وعمارة الدنيا على سلسلة متقدمة من الخطوات التي يعتمد بعضها على الآخر؛ حتى تشكّل منظومة متكاملة تؤخذ ثمرتها من الكشف عن ذلك الخلق الكريم في الصحابة ﷺ بالطرق المذكورة آنفًا، ومن ثم تعزيزها وتنميتها وإعدادها بشكل متكامل؛ ليُعمَد بعدها إلى توظيف ذلك الخلق والعمل به، ويكون هذا التوظيف من خلال ما يلي:

المطلب الأول
تفعيل خلق الرحمة في الواقع المحسوس

قد يملك بعض الناس درجات رفيعة من خلق الرحمة، إلا أنه لا يُفيد منها في أفعاله، أو لا يستطيع أن يجعل لها وقعًا أو أثرًا في حياته أو حياة من هو حوله، إلا أن يُوجه إلى تطبيقه، ذلك أن خلق الرحمة ينبني عليه عدد من القيم والأخلاق الإسلامية؛ كالرفق واللين والعطف على الصغير واليتيم والكبير وذي القربى، كما يحمله معنى الإحسان إلى الغير والتسامح والتيسير والبر وغير ذلك.

ولهذا يمكن لخلق الرحمة أن يكون بوابة للمحبة والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة التي أمر الله بها؛ لأن ذلك كله يصب في كمال الإيمان، وتمام العقيدة، وهي لب ما بعث الله لأجله محمدًا ﷺ في قوله ﷺ: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[1]، وبدا ذلك جليًا حين جاءه ﷺ رجل يشكو قسوة قلبه؛ فقال له: «أتحبّ أن يلين قلبك؟. ارحم اليتيم، وامسح على رأسه وأطعمه من طعامك؛ يلن قلبك»[2].

المطلب الثاني
إبراز القدوة والمثل الأعلى

لقد أفاد الصحابة رضي الله عنهم من شخصية النبي ﷺ كثيرًا من المبادئ والأخلاق والقيم، وعلى رأس تلك الأخلاق رحمته ﷺ، كما قال ﷻ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة]؛ ولهذا كان النبي ﷺ مثلهم الأعلى، واتخذوا هديه منهجًا حرصوا على تطبيقه في حياته وبعد وفاته ﷺ.

وقد كان النبي ﷺ سيد الرحمة المهداة إذ حصر الله ﷻ رسالته بها حين قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء]؛ ولهذا تمثّل النبي ﷺ ذلك الخُلُق في كثير من مواقفه تجاه المسلم؛ كرحمته بالأعرابي الذي بال في المسجد[3]، ورحمته بغير المسلم حين احمرّ وجهه لما رأى امرأة قتيلة في وسط المعركة، فنهى عن قتل النساء والصبيان[4]، ورحمته بالصغير حين قُتل جعفر، فرأى ابنه عبدالله فقال: «ارفعوا لي هذا»، فحمله على دابته

(١) حسن. رواه أحمد، المسند، ٢/ ٣١٨، وحسّنه الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة ١/ ١١٢، وقال الحاكم: «صحيح على شرط مسلم». انظر: المستدرك، ٢/ ٦١٣.
(٢) حسن لغيره. رواه أحمد، المسند، ح(٧٥٦٦)، وحسّنه الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة، ح(٨٥٤).
(٣) صحيح. رواه البخاري، صحيح البخاري، ح(٥٥٥١).
(٤) متفق عليه. رواه البخاري، صحيح البخاري، ح(٢٧٩٢)، ومسلم، صحيح مسلم، ح(٣٢٨٠).

ومسح على رأسه ثلاثًا وقال: «اللهم اخلف جعفرًا في ولده»[1]، وكذا رحمته بالمرأة والبنات والشيوخ والعبيد، والأعداء والأسرى، والجيران وذوي القربى والأرامل والأيتام، والأموات وأهل الذمة والمشركين، والعصاة والجهلاء، وكل الناس؛ كما قال ابن كثير (تفسير القرآن ٣/ ٤٠١: "وَكَانَ مِنْ أَخْلَاق النبي ﷺ أَنَّهُ جَمِيل الْعِشْرَة، دَائِم الْبِشْر، يُدَاعِب أَهْله، وَيَتَلَطَّف بِهِمْ، وَيُوسِعهُمْ نَفَقَته، وَيُضَاحِك نِسَاءَهُ"[2].

بل تعدت رحمته إلى الحيوان حين عاتب أصحابه قائلًا: «من فجع هذه بفرخيها؟»، ورأى قرية نمل قد أُحرقت فنهى عن ذلك[3]، ورحمته بالنبات والجماد حين ضم الجذع لما حنّ لفراقه ﷺ[4]، وغيرها من المواقف التي لا حصر لها، حتى كانت شعارًا للدعوة والدين.

بل كانت صفة إلهية تليق بجلال الله ﷻ وكماله؛ أقام الله ﷻ عليها الكون ومعاشرة المخلوقات بعضها البعض، حتى يترسخ في النفوس هذا المفهوم الرباني.

المطلب الثالث
التعزيز الإيجابي

اتفق علماء التربية وعلم النفس على أن التعزيز الإيجابي عامل مهم لتفعيل القيم والأخلاق، كما الحال في أهميته لغرسها وتنميتها، وهو منهج نبوي متبع، أسّس له القرآن الكريم والشريعة الإلهية بالترغيب وفضائل الأعمال.

(١) حسن. رواه أحمد، المسند، ح(١٧٦٠)، وحسنه الألباني، أحكام الجنائز، ١/ ١٦٨.
(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ٣/ ٤٠١.
(٣) صحيح. رواه أبو داود، سنن أبي داود، ح(٢٦٧٥)، وصححه الألباني، السلسلة الصحيحة، ح(٤٨٧).
(٤) صحيح. رواه مسلم، صحيح مسلم، ح(٣٣١٨).

وجاء في السنة النبوية عدد من المواقف التي عزّز فيها النبي ﷺ أصحابه رضي الله عنهم في رحمة الناس والرأفة بهم؛ سواء كانت للوالدين أو الأبناء أو الزوجة أو الفقير أو عامة المسلمين، مما شكّل لدى المسلم ثقافة البحث عن الرحمة والعمل بها، وتطويرها والدعوة إليها.

ويعتمد التعزيز الإيجابي على المعرفة المسبّقة أو معاينة موقف أو ملاحظة عمل نبيل صادر من أحد الصحابة رضي الله عنهم.

وقد جاء في السنة النبوية عدد من الأحاديث والمواقف النبوية التي تعزز هذا الخلق الكريم، وتبيّن فضل العمل به، وجزاء صاحبه، الحاثة على الرحمة، المبيّنة لفضلها وجزائها عند الله ﷻ؛ سواء كان جزاء دنيويًا أو أخرويًا؛ كما في قوله ﷺ: «ارحموا من في الأرض؛ يرحمكم من في السماء»[1]، وقوله ﷺ: «الراحمون يرحمهم الرحمن»[2]، وغيرها من الأحاديث.

المطلب الرابع
التعلم المتبادل

تقوم المجتمعات سواء الإسلامية أو غيرها على ما يملكه أفرادها من القيم؛ وكلما كانت تلك القيم ذوات مستويات عليا؛ ارتفعت سوية المجتمع، مما يجعله مجتمعًا مؤثّرًا يسهل اقتناع الآخرين بمبادئه بمجرد معايشته؛ الأمر الذي جعل كثيرًا من الأفراد والشعوب يعتنقون الإسلام بمجرد معاينتهم لأخلاق المسلمين والتزامهم وانضباطهم بالقيم الإسلامية المختلفة، إضافة

(١) صحيح. رواه الترمذي، سنن الترمذي، ح(١٩٢٤)، وقال: «حسن صحيح»، وصححه الألباني، السلسلة الصحيحة، ح(٩٢٢).

(٢) صحيح. رواه الترمذي، سنن الترمذي، ح(١٩٢٤)، وقال: «حسن صحيح»، وصححه الألباني، السلسلة الصحيحة، ح(٩٢٢).

إلى ما اكتسبه المسلمون أنفسهم من بعضهم البعض، كل ذلك يدخل في مفهوم التعلم المتبادل.

وقد ورد في السيرة النبوية مواقف عدة؛ وظّف فيها النبي ﷺ التعلّم المتبادل لخلق الرحمة؛ كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قبّل الحسن والحسين؛ فقال الأعرابي: أتقبلون الصبيان؟ فما نقبلهم، فقال النبي ﷺ: «أو أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة»[1]، وهنا جاء مبدأ التعلم ونقل ثقافة الرحمة إلى أفراد المجتمع الذين يُعوزهم وجوده، هذا من الناحية التطبيقية.

إضافة إلى التعلم النظري، بما أمر به النبي ﷺ من الترحم على الناس، واتخاذ هذا الخلق الكريم منهجًا للدعوة والحياة، وهو أمر يدخل في مضمون القدوة والتوجيه، إضافة إلى ما كان يمتلكه كثير من الصحابة رضي الله عنهم من الرحمة الفطرية أو المكتسبة، كما وصف النبي ﷺ أهل اليمن قائلًا: «أتاكم أهل اليمن، هم أرق أفئدة، وألين قلوبًا ...، والسكينة في أهل الغنم»[2]، فحثّ النبي ﷺ على معاملتهم بالرفق، والتعلم من خلق الرحمة واللين الذي يتحلّون به.

(١) متفق عليه. رواه البخاري، صحيح البخاري، ح(٥٥٣٩)، ومسلم، صحيح مسلم، ح(٤٢٨١).
(٢) متفق عليه. رواه البخاري، صحيح البخاري، ح(٤٠٣٧)، ومسلم، صحيح مسلم، ح(٧٣).

الخاتمة

تعود أسبقية المنهج النبوي ومثاليته في تعزيز خلق الرحمة وصقله إلى عظم الشريعة الإسلامية وكمالها المنبثق عن ربانية مصدرها؛ الأمر الذي يتوثق منه المختصون في أية جزئية يتم التسليط عليها في الشريعة الإسلامية المطهرة، ومن هنا يمكن أن تتلخص نتائج هذه الدراسة فيما يلي:

١. يُعد خلق الرحمة أحد ركائز الشريعة الإسلامية، وأسسها التي أمر الله تعالى بالتعامل من خلالها، وهو سبب تنزيل الشريعة، وإرسال الرسل.

٢. لقد سبق المنهج النبوي كافة المناهج العصرية الداعية إلى غرس وتعزيز خلق الرحمة، ولم تضف عليه أكثر من مصطلحات معاصرة مستحدثة.

٣. يولد خلق الرحمة فطريًا مع الإنسان بدرجات متفاوتة، ويمكن تعزيزه بعد ذلك وتقويمه بعدة آليات مختلفة، وهذا يفسر وجود شخصيات غير مسلمة تتسم بقدر عالٍ من الرحمة في المعاملات والأخلاق.

٤. يعتمد المنهج الصحيح في غرس خلق الرحمة وتعزيزه على الكشف عن الدرجات المكتسبة من هذا الخلق، وذلك من خلال السؤال المباشر، أو المراقبة والمتابعة وتحديد المؤشرات، أو من خلال أسلوب الحث الاختباري للكشف عن مدى الاتصاف بهذا الخلق القويم.

٥. يقوم تعزيز خلق الرحمة على عدة طرق بغض النظر عن درجات امتلاك الشخص لهذا الخلق؛ سواء كان عن طريق توظيف البيئات المحيطة، أو خلقها، أو تأطير ضبطه بالمنهج الرباني، أو تمثّل القدوة ورسم المثل الأعلى، أو استخدام الترغيب والتوضيح بوسائله المختلفة، أو من خلال التدريب والتعليم التطبيقي، أو تقويم الأخطاء والمواقف المؤثرة على التحلي بالرحمة الإسلامية، إضافة إلى العوامل الروحانية القائمة على الدعاء وطلب الإعانة من الله تعالى على التخلق به.

٦. تتمثل الإفادة من التحلي بخلق الرحمة بتوظيفها لخدمة الدين والدعوة إلى الله تعالى، من خلال تفعيل العمل بها واتخاذها أساسًا في المعاملات، والإشارة إلى الأشخاص الذين يمتلكون قدرًا عاليًا منها ليكونوا أسوة لغيرهم، وكذلك من خلال التعزيز الإيجابي الداعم لصاحب هذا الخلق العظيم، إضافة إلى مهارة التعلم المتبادل واكتساب الأخلاق من خلال المواقف التي يعاينها المسلم.

التوصيات:

من خلال الدراسة المتأنية لكثير من مواقف الرحمة النبوية المهداة، واستنطاق أحداثها، والنظر في المناهج التربوية الحديثة وما قدّمت في تعزيز هذا الخلق الكريم، نجد أن المنهج النبوي كان رائدًا في كثير من الأساليب التربوية والتنموية لبناء وغرس الرحمة وتعزيزها

بشكل أكثر عمقًا وتفصيلًا، والتي يمكن الإفادة منها ضمن التوصيات والمقترحات التالية:

١. استقراء القرآن الكريم والسيرة النبوية بشكل كامل، واستنطاقها، والعمل على تفصيل أنواع الرحمة، وإفراد كل نوع بدراسة تربوية عملية معاصرة، ضمن آلية علمية منضبطة، ودون مبالغة أو تفريع غير مجدٍ.

٢. توطيد المنهج النبوي في تعزيز قيمة الرحمة لدى المربين وعلماء النفس، وإظهار مدى الحكمة النبوية في تربية الصحابة ﷺ، والبناء الخلقي والقيمي عندهم، والكشف عن الطرق والمناهج التي اتبعها في ذلك.

٣. التوسع في دراسة خلق الرحمة عند الصحابة ﷺ، والتابعين، والسلف الصالح من العلماء والمربين، وإبراز جوانبها وآلياتها وطرق الإفادة منها للمنظومات التربوية المعاصرة.

٤. دراسة منهج تعزيز خلق الرحمة حسب التوظيف القرآني لها، وتطبيقها على المواضيع والمواقف التي تحويها سور القرآن، ليظهر من خلالها التوجيه القرآني للرحمة الإلهية، وكيفية استجلابها والإفادة منها في مجال التربية.

٥. تدريب الدعاة والوعاظ وأئمة المساجد والخطباء على المنهج النبوي في التعامل والتعزيز لهذا الخلق الكريم، وتدريسها من خلال السيرة النبوية، وتوجيههم لتوظيف هذا الخلق في مصلحة الدعوة إلى الله ﷻ، ونشر دين الحق.

٦. تعميم ما سبق ذكره من المناهج على جميع المؤسسات التربوية

والجمعيات والتخصصات الجامعية والمعاهد العليا.

٧. توظيف وسائل الإعلام المختلفة لترسيخ هذا المنهج، وإعداد البرامج لخدمتها، وإبراز هذه القيمة الإسلامية، ومدى تميّز الإسلام بها، وسبقه لتطبيقها، ودرء ما يُفترى عليه من العنف والإرهاب.

٨. إنشاء قنوات التواصل بين مؤسسات المجتمع المدني والباحثين والمفكرين والمؤسسات التربوية والتعليمة والثقافية والإعلامية لبلورة تلك القيمة العظيمة، ومكانتها في الإسلام، وعمقها في المنهج النبوي، من خلال مشاريع عمل مشتركة وهادفة.

٩. عمل المؤتمرات والندوات وورش العمل التدريبية ودعوة الباحثين والدارسين ورجال الثقافة وأصحاب القرار التربوي والتعليمي؛ لدعم مفهوم الرحمة الحقيقي، وآليات تطبيقه وتفعيله.

١٠. إنشاء مؤسسات ذات مرجعية عليا تُعنى بمتابعة البناء الأخلاقي بشكل عام، على المستويات الرسمية وغير الرسمية بناء على المنهج الإسلامي والنبوي؛ ولتكون مرجعًا عالميًا، ومركزًا لوضع وابتكار الطرق والآليات المتطورة الداعمة لغرس القيم والأخلاق لجميع المراحل العمرية والعقلية.

فهرس المصادر والمراجع:

١. ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي الرويفعي، لسان العرب، ط٣، ١٥م، دار صادر، بيروت، ١٤١٤هـ.

٢. ابن كثير، إسماعيل بن عمر، تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)، ط٢، ٨م، دار طيبة، المدينة المنورة، ١٩٩٩م.

٣. أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، سنن أبي داود، ٤م، دار الكتاب العربي، بيروت.

٤. الألباني، محمد ناصر الدين، سلسلة الأحاديث الصحيحة، ٧م، مكتبة المعارف، الرياض.

٥. الألباني، محمد بن ناصر الدين، أحكام الجنائز، ط٤، ١م، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٦م.

٦. الألباني، محمد ناصر الدين، صحيح الترغيب والترهيب، ط٥، ٣م، مكتبة المعارف، الرياض.

٧. الألباني، محمد ناصر الدين، صحيح الجامع الصغير وزيادته، ط١، ٢م، مكتبة المعارف، الرياض.

٨. المباركفوري، محمد بن عبدالرحمن، تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، ١٠م، دار الكتب العلمية، بيروت.

٩. البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم أبو عبدالله الجعفي، الجامع الصحيح المختصر من حديث الرسول ﷺ وسننه وأيامه، ط٣، ٦م، دار ابن كثير واليمامة، بيروت، ١٩٨٧م، تحقيق مصطفى البغا.

١٠. الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة، الجامع الصحيح المسمى بسنن الترمذي، ٥م، دار إحياء التراث العربي، بيروت، تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرون.

١١. البرقوقي، عبدالرحمن، شرح ديوان حسان بن ثابت، دار الشرق العربي، بيروت، ١٩٩١م.
١٢. جابر، جابر عبدالحميد، الذكاءات المتعددة والفهم تنمية وتعميق، دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م.
١٣. الجوهري، الصحاح، ط٤، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٧م، تحقيق أحمد عبدالغفور عطار.
١٤. الخطيب البغدادي، أحمد بن علي، تاريخ بغداد، ١٤م، دار الكتب العلمية، بيروت.
١٥. الشيباني، أحمد بن محمد بن حنبل، المسند، ٥٠م، ط٢، مؤسسة الرسالة، ١٩٩٩م، تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرون.
١٦. الصمدي، خالد، القيم الإسلامية في المنظومة التربوية، ١م، المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، الرباط، ٢٠٠٨م.
١٧. عياض، القاضي عياض بن موسى اليحصبي، الشفا بتعريف حقوق المصطفى، تحقيق حسين عبدالحميد، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت.
١٨. المناوي، زين الدين محمد بن عبدالرؤوف بن تاج العارفين، التوقيف على مهمات التعاريف، ط١، دار الفكر المعاصر، بيروت-دمشق، ١٤١٠هـ، تحقيق محمد رضوان الداية.
١٩. المناوي، زين الدين محمد بن عبدالرؤوف بن تاج العارفين، فيض القدير شرح الجامع الصغير، ط١، ٦م، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٤م.
٢٠. النيسابوري، مسلم بن الحجاج القشيري، الجامع الصحيح المسمى بصحيح مسلم، ٨م، دار الجيل ودار الآفاق، بيروت.